ها هو الباشا عندكم

وكان خورشيد باشا سيء الرأي فاسد التدبير، ميالًا إلى الظلم غير مكترث بميول الشعب، معتمدًا على القوة الغشوم، وتعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس، ففي عهده قوي سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه.

ونعود إلى أبطال قصتنا، حيث يتحدثان معًا في بيت محمد علي باشا في الأزبكية، ويحاول محمد بك لاظ معرفة ما سيفعله الباشا مع الوالي العثماني، خاصة بعد عودة أمراء المماليك للسيطرة على معظم بلاد الوجه القبلي وبعض بلاد الوجه البحري، ودخولهم في حرب مع الوالي العثماني، شارك فيها محمد علي في صف الوالي بالطبع، وتردد لاظ بك قبل أن يسأل الباشا في حذر:

- ماذا عسانا أن نفعله حيال خورشيد باشا يا أفندينا؟

- لن نفعل شيئًا يا لاظ بك، بل إن أفعال عساكره هي التي ستقضي عليه..

- وكيف ذلك؟

- ألا تراهم يسيئون التعامل مع الناس، وينهبون ويقتلون ويخطفون حاجات الناس، ولا يستطيع السيطرة عليهم أو إيقافهم عند حدِّهم مما أثار غضب السيد عمر النقيب وباقي المشايخ..

- الأعجب من ذلك يا أفندينا، أن الدولة العثمانية تستمر في إمداد الوالي بالمزيد من العسكر العثماني على اختلاف أنواعهم، حيث وصل مؤخرًا العسكر الدلاة الذين زادوا الطين بلة، ولا أدري كيف تأتيهم الجرأة لارتكاب كل هذه الجرائم في حق الشعب، وهو لم يحدث من المماليك؟

- المماليك يا لاظ يعتبرون أنفسهم مصريون، وينتمون لهذا البلد، ويخجلون من مثل هذه الأفعال، أما العسكر العثماني فغرباء عن البلد وأهله يا لاظ..

- لقد فهمت الآن يا أفندينا سر تسمية المماليك بالمصرلية..

- آه لو يعلم السلطان ما يرتكبه عسكره في مصر من جرائم تستوجب العقاب!

- ولماذا يسكت الوالي ولا ينهاهم يا أفندينا؟

- إنه يعتمد عليهم في توطيد أركان حكمه، فهو يهادنهم ويدبر لهم رواتبهم، ويفرض الضرائب من أجلهم.

- ولكن ذلك أغضب الشعب ولجأ إلى مشايخه!

- وهذا بالتحديد ما سيؤدي للثورة التي ستطيح به يا لاظ؛ فلا تتعجل الأمور واصبر!

ولنترك الباشا وجليسه المخلص في الأزبكية، ونتجه إلى حارة الصناديقية بالأزهر، حيث الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ الكبير يتابع ويدون كل ما يحدث، ويروي لنا ما حدث بعد ذلك، **حيث كتب ما يلي**:

حضر سكان مصر القديمة نساء ورجالًا إلى جهة الجامع الأزهر يشكون ويستغيثون من أفعال الدالاتية، ويخبرون أن الدالاتية قد أخرجوهم من مساكنهم وأوطانهم قهرًا، ولم يتركوهم يأخذون ثيابهم ومتاعهم، بل ومنعوا النساء أيضًا عندهم، وما خلص منهم إلا من تسلق وقفز من الجدران، وحضروا على هذه الصورة، فركب المشايخ إلى خورشيد باشا وخاطبوه في أمرهم، فكتب فرمانًا خطابًا للدالاتية بالخروج من الدور وتركها إلى أصحابها، فلم يمتثلوا، ولم يسمعوا ذلك، فخوطب الباشا ثانية، وأخبروه بعصيانهم، فقال إنهم مقيمون ثلاثة أيام، ثم يسافرون، وزاد الضجيج والجمع، فاجتمع المشايخ في صبحها يوم الخميس بالأزهر وتركوا قراءة الدروس، وخرجت سربة من الأولاد الصغار يصرخون بالأسواق ويأمرون الناس بغلق الحوانيت، وحصل بالبلدة ضجة ووصل الخبر إلى الباشا بذلك، فأرسل كتخداه إلى الأزهر، فلم يجد أحدًا، وكان المشايخ انتقلوا بعد الظهر إلى بيتهم لأغراض نفسانية، وفشل مستمر فيهم، فلم ير أحدًا، فذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوي وحضر هناك السيد عمر أفندي وخلافه فكلموه وأوهموه، ثم قام وانصرف.

وفي خروجه رجمه الأولاد بالحجارة وسبوه وشتموه وبقي الأمر على السكوت إلى يوم الجمعة، عاشره والمشايخ تاركون الحضور إلى الأزهر وغالب الأسواق والدكاكين مغلقة واللغط والوسوسة دائران، وبطل طلوع المشايخ والوجاقلية ومبيتهم بالقلعة.

وفي ذلك اليوم نزل أحمد خورشيد باشا من القلعة ودخل بيت سعيد آغا، وذلك أنه ورد قاصدًا إسطمبول وعلى يده تقليد لمحمد علي بولاية جدة، فامتنع عن طلوع القلعة، فوقع الاتفاق على أن الباشا ينزل إلى بيت سعيد آغا ويخلع علي محمد علي هناك، فلما حضر الباشا هناك وحضر محمد علي وحسن باشا وأخوه عابدي بك وتقلد محمد علي باشا ولاية جدة ولبس فروة وقاووقًا وخرج يريد الركوب، فثارت عليه العسكر وطلبوا منه العلوفة، فقال لهم:

- ها هو الباشا عندكم..

وركب هو وذهب إلى داره بالأزبكية، وصار يفرق وينثر الذهب بطول الطريق، ثم إن العسكر ساروا إلى خورشيد باشا ومنعوه من الركوب، فلم يزل إلى بعد الغروب، فلاطفهم حسن باشا الذي كان يرافق الوالي ووعدهم، ثم ذهب مع حسن باشا إلى داره.

ومن رواية الجبرتي، يتضح مدى ضعف الباشا أمام العسكر الدلاة، كما أن الجبرتي ذكر محاولة الباب العالي في إبعاد محمد علي عن مصر ليصبح والي جدة، وقد أظهر محمد علي الطاعة لهذا الأمر، بل وبالغ في ذلك بنثر الذهب تعبيرًا عن سعادته بولاية جدة، ولكنه كان ينتظر شيئًا آخر، كان ينتظر الثورة التي كانت على وشك الاشتعال في أية لحظة..